مقدمة المؤلف

كتبتُ هذا الكتاب على ثلاث مراحل ، كانت الأولى عبارة عن بحث قدمته فى مؤتمر بمدينة اسطنبول (ديسمبر ١٩٨٩) حول علاقات تركيا بدول المجموعة الأوربية ، وكان ذلك عقب سقوط حائط برلين مباشرة، وقد ركزت على تحليل التغيرات الثقافية والأزمة التى تفاقمت من جراء تلك التغيرات . وعرضت خمس نقاط جدلية رئيسية هى :

١ـ إنَّ انهيار الكتلة الاشتراكية يعتبر مؤشراً على وجود أزمة حضارية شاملة بما سيعقبها من تداعيات مختلفة ، ولكن هذا الانهيار لا يعتبر انتصاراً نهائيًا للرأسمالية الغربية .

٢ ـ إنَّ فكرة الاندماج الأوروبى هى محاولة لإحياء تقليد قديم متأصل فى الحضارة الغربية يستهدف استرداد مركز الحضارة إلى يد أوروبا مرة أخرى .

٣ ـ إنَّ العوامل الحضارية والخلفيات التاريخية ستكون هى الأكثر حسمًا من العوامل الاقتصادية فى تحديد موقف دول المجموعة الأوروبية من طلب تركيا الحصول على عضوية كاملة بالاتحاد الأوروبى.

٤ ـ إنَّ الزعماء الأوروبيين المقتنعين تمامًا بمركزية الحضارة الأوربية وتفوقها الكاسح غير مستعدين لأن يروا دولة مسلمة داخل أوروبا .

٥ ـ هذا الوهم القائم على التمركز حول الذات لدى الرجل الغربى ـ وكما وصفه أرنولد توينبى ـ هو العقبة الكبرى أمام تعددية العيش المشترك فى أوروبا .

أما المرحلة الثانية لكتابة هذا الكتاب فقد كانت عام ١٩٩١ ، وفيها قمت بتحليل الخلفية الفلسفية والعواقب السياسية لتلك التحولات الحضارية عبر مقارنة بنيوية بين

الحضارتين الغربية والإسلامية .وجاء هذا التحليل فى بحث قدمته للمؤتمر السنوى الثالث والعشرين لجمعية الدراسات الدولية تحت عنوان: «أبعاد جديدة فى العلاقات الدولية»، والذى عقد فى فانكوفر (ألمانيا) فى الفترة ما بين ٢٠ ـ ٢٣ مارس ١٩٩١ . وكانت الافتراضات التالية محورًا لهذا البحث الذى قدمته مباشرة بعد أن تزعمت الولايات المتحدة الأمريكية تحالف المنتصرين إبان حرب الخليج . وهذه الافتراضات هى:

أولاً: إنَّ نظرية نهاية التاريخ لفوكوياما والتى تؤكد انتصار الديمقراطية الليبرالية غير المشروط واعتباره المرحلة الأخيرة من مراحل التطور الأيديولوچى الإنسانى ، تلك النظرية ـ التى لا تتعدى حيز التكهن ـ دعمت القوى المهيمنة بما تحتاجه من مبررات نظرية لإعادة هيكلة النظام العالمى .

ثانيًا: إنَّ التفاؤل المستقبلى بشأن مفهوم النظام العالمى الجديد فى حقبة ما بعد الحرب الباردة ، لا يعكس بالضرورة الحقائق السياسية فى العلاقات الدولية .

ثالثًا: إنَّ نشوء قوى سياسية حقيقية مستندة إلى هويات حضارية ، سوف يقود إلى خلق «توازن» فى هيكل القوة فى منطقة أوراسيا، الأمر الذى سوف يتمخض بدوره عن عداءات واضطرابات سياسية بدلاً من بناء نظام سياسى عالمى فعال .

رابعًا: إنَّ إعادة إحياء الهوية الإسلامية هو صيغة أخرى من صيغ التحولات الحضارية ، ويمكن أن يقدم بديلاً حضاريًا متكاملاً باستطاعته أن يتحدى الحضارة الغربية بدلًا من أن يكون مصدر تهديد سياسى لها .

وقد أكدت الأحداث السياسية التى وقعت فى مطلع التسعينيات من القرن الماضى بشكل لا يقبل الجدل صحة التكهنات التى وردت فى البحثين اللذين أشرت إليهما . حيث أخذ بريق نظرية «التفاؤل بالمستقبل» يخبو ، وبخاصة خلال فترة ما بعد الحرب فى البوسنية ، حينما تم تدمير التراث والهوية الإسلامية فى قلب القارة الأوروبية باستخدام أساليب بربرية من التطهير العرقى ، مما برهن على تفاقم الاختلالات التى ينوء بها النظام العالمى ، تلك الاختلالات التى اجترحتها يد الحضارة الغربية . وأثبت السكوت والسلبية إزاء الانتهاكات الصربية لحقوق مسلمى البوسنة أن الحضارة الغربية قد قلبت ظهر المجن لإقامة تعايش سلمى مع الثقافات والحضارات الأخرى .هذا إلى جانب

الصراعات الداخلية فيما بين الأنظمة الحاكمة التى أدت إلى تأجيج الصراعات السياسية وتردى الأوضاع فى كثير من المناطق الجيوسياسية الحساسة.

وانطلاقًا من أهمية البحثين المذكورين، قمت بإعادة صياغتهما كفصول لهذا الكتاب، وكانت هذه هى المرحلة الثالثة لإعداده. وبالرغم من أن هذا الكتاب كان معدًا للنشر منذ نوفمبر سنة ١٩٩٢ فقد تم تأجيل نشره نظرًا لأولوية بعض الأعمال الأخرى.

بدأتُ الفصل الأول من هذا الكتاب بمراجعة نقدية لنظريات «النهاية»، والتى تنادى بنهاية الدين والأيديولوچية والتاريخ. وكان هدفى من هذه المراجعة النقدية هو شرح المفاهيم الخاطئة التى يقوم عليها النموذج الحداثى فيما يتعلق بمستقبل الإنسانية. ثم انتقلت فى الفصل الثانى إلى مسح للأزمة الحضارية، وذلك على نحو يرسم إطارًا نظريا للفكرة الرئيسية لهذا الكتاب، وهى أن انهيار الاشتراكية يعد مؤشرًا على وجود أزمة حضارية شاملة وما يستتبعها من تحولات بالغة الأثر. أما الفصل الثالث فيلقى الضوء على محاولات إعادة هيكلة الثوابت الفلسفية للنموذج الغربى بهدف التغلب على تلك الأزمة الحضارية. ويناقش الفصل الرابع العواقب السياسية لتلك التحولات الحضارية بشكل مفصل.

أما فى بقية فصول الكتاب فقد قمت بتحليل موقف العالم الإسلامى تجاه تلك التحولات. فالفصل الخامس يناقش الأسس والثوابت النظرية لردة فعل العالم الإسلامى تجاه الأزمة الحضارية القائمة، فى الوقت الذى يناقش فيه الفصل السادس الإشكالية الفكرية والبنيوية فى العالم الإسلامى، والتى تحول دون صياغة نظام حضارى جديد. كما يلقى الفصل السابع الضوء على التوترات والتحديات السياسية فيما بين مراكز القوى فى النظام العالمى ودور العالم الإسلامى كطرف فى الإشكاليات الحضارية ثنائية البعد. وينتهى الكتاب بملاحظات ختامية فى الفصل الثامن.

وفى النهاية أود أن أعبر عن شكرى وامتنانى العميقين لمسئولى جامعة ماليزيا الإسلامية العالمية وفى مقدمتهم الدكتور عبدالحميد أبو سليمان، و الدكتور كمال حسن والأستاذ الدكتور أنيس أحمد، وذلك لدعمهم ومساندتهم لى فى تقديم البحث الثانى خلال المؤتمر السنوى لجمعية الدراسات الدولية. أود أيضًا أن أقدم جزيل الشكر إلى